الخطبة السابعة والأربعون

لماذا خلقت؟ وما هو الهدف؟

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، وبعد:

إذا نظرنا إلى وضع أولادنا وشبابنا أيّـًا كانوا وحيثما حَلّوا، ماذا ترى؟ نرى ظاهرة عامة وهي التفلت من الدين والبعد عنه، والركض وراء الدنيا ووراء الشهوات ووراء مضيعة الوقت والتعلق بالتفاهات التي لا طائل منها ولا فائدة فيها.

والسؤال المطروح: ما أسباب هذا التفلت وهذا الضياع؟

قد يحلل العلماء والمختصون أسبابـًا لهذه الظاهرة، فجزى الله خيراً كل من ساهم في حل المشكلة، وإني سمعت مقولة جيدة وهي: (إذا لم يكن لديك هدف فمن الصعب الوصول إليه).

1- انعدام الهدف أو عدم تحديده، 2- ما هي مسؤوليتي؟ 3- ما سبب وجودي ولماذا خُلقت؟ لماذا أنا هنا؟، 4- سوء الفهم وسوء التربية وغباشة الصورة.

السؤال الأول: لماذا خُلقت؟ قد تكون الأجوبة كثيرة ومتعددة، فمنهم من يقول: مشيئة الله وقدرته، ومنهم من يقول: لكي أَعْمُرَ الأرض، ومنهم من يقول: لكي أعبد الله تعالى، كل هذا جيد، فإذاً خلقت بمشيئة الله، ولكن يبقى السؤال: لماذا خلقني؟ والقول: لكي أَعْمُرَ الأرض، يبقى السؤال: كيف أعمرها؟

والقول: لأعبد الله، والسؤال يبقى: كيف أعبده؟ وما هي العبادة؟ وما هي النتيجة؟ والذي أريد الوصول إليه هو: أن التفلت والضياع أحد أسبابه هو أننا لم نوجه أسئلة إلى أنفسنا ولم نحدد أجوبة واضحة المفهوم والدلالة لدينا، والله أعلم.

وزاد المشكلة تعقيداً عدم تحديد وشرح المصطلحات بشكل جيد، هذا عدا أنه لم يكن شرحها خاطئًا، أو مغلوطًا.

مثلاً لو سأل شاب أحد الأساتذة : ما هو سبب وجودنا؟ ولماذا خُلقنا؟ لكان جواب الأستاذ: إن الله تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 51/ 56].

خُلقنا لعبادة الله، لكن هذا الجواب الصحيح ناقص، لأن الشاب لم يعرف معنى العبادة، أو أن معنى العبادة عنده مغلوط، كيف يكون مغلوطًا؟

قد يرى أو يعتقد بعض الشباب أن العبادة هي انقطاع عن الدنيا والتفرغ للصوم والصلاة وقراءة القرآن، كما يرى هؤلاء ويعملون، أو كما يقرؤون في الكتب، أو يُقرأ عليهم أو يسمعونه ... من أن فلانًا كان يصوم غالب أيامه، وفلانًا كان يصلي مئة ركعة، وأن فلانًا يقرأ القرآن كل ليلة، وأن وأن.. وما إلى ذلك...

ومن هنا نشأت مصائب:

1- أننا لم نشرح العبادة، 2- أعطينا مفهومًا خاطئًا، 3- جعلنا العبادة أمراً مستحيلاً، إن لم يكن مستحيلاً على كل الناس، ولكنه مستحيل على فئة الشباب اليوم، 4- أبعدنا الناس عن الدين، لأن العبادة هي أساس الدين، وإذا كانت العبادة مستحيلة عليّ، فالدين كله مستحيل عليّ ... والإنسان بطبعه لا يحب الوقوع في التناقض، أدّعي أني متدين وأعيش خلاف ديانتي، فهذا التناقض لا يستمر، فإما أن يصبح متدينًا حقًا أو أن يطرح الدين جانبًا، وهذا هو الخيار غالبًا؛ لأن مفهوم الدين والعبادة أصلاً مشوّهٌ وليس فيه قناعة، وقد يقول بعضهم: لماذا الدين أصلاً؟

هؤلاء الغربيون يعيشون حياتهم ويعملون ويربون أولاداً وهم سعيدون في حياتهم، لماذا الدين؟ وقد يجيب آخر بأن الدين هو كي تصبح أخلاقك حميدة فلا تكذب ولا تسرق، ولا تغش، ولا ولا ...

وهذا الجواب أضل من الأول؛ لأنه قد يتطرق إلى فهم أحدهم: بأني إذا امتنعت عن الكذب والغش والخداع والسرقة وما إلى ذلك، فإني لست بحاجة إلى الدين، تخبطات ومتاهات ... ويزيد المشكلة تعقيداً أجوبة من يعتقدون أنهم أهلٌ للجواب -وهم ليسوا كذلك- وبعضهم يتفلسف ويُضل خلقاً كثيراً بفلسفته وآرائه ... ولو تعقل الإنسان ونظر في قوله قبل أن يتكلم ويبدي آرائه وفلسفته لفاز فوزاً عظيماً.

عن بلال بن الحارث رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها من سخطه إلى يوم القيامة» حم - ت - ن - ك - حب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها أبعد مما بين المشرق والمغرب» متفق عليه - حم.

أرجع فأقول نعم إن الهدف من وجودي أن أعبد الله، فأنا عبد، طبيعتي عبد، هذه حقيقة يجب أن أفهمها، أنا عبد، فإما أن أكون عبداً لمن خلقني وأوجدني، ورزقني، ويرعاني، ويحفظني، ويعطيني، ويمدني بما يلزمني في كل لحظة من لحظات حياتي، بيده سَيْرُ دمي، ودقات قلبي، ونظري وسمعي وعقلي ورئتي وأعصابي، وكل شيء أعلمه، وكل شيء لا أعلمه، فهو مالك الملك وهو المدبر لكل شيء والقابض لكل شيء، والباسط لكل شيء، هو الله، هو الرب، هو الإله، إما أن أكون عبداً له، أو أن أكون عبداً لغيره، فأنا عبد شئت أم أبيت.

والعبادة لغير الله متعددة، فعبد للشيطان، وعبد للشهوات، وعبد للمال،

وعبد للنساء، عبد للمناصب، وعبد للشهرة، العبودية متعددة لذلك اسمع معي لهذا الحديث الجميل.

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «من جعل الهموم هماً واحداً، كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة، ومن تشاعبت به الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك» ك.

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من تكن الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه، وشتت الله عليه ضيعته، ولا يأتيه منها إلا ما كتب له، ومن تكن الآخرة نيته جعل الله غناه في قلبه، ويكف عليه ضيعته، وتأتيه الدنيا وهي راغمة» ابن عساكر وابن ماجه.

أنا عبد الله، ما هي العبادة؟ العبادة لله وحده فهي:

1- إخلاص لله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: 98/ 5].

2- مراقبة الله، قال ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه» مسلم.

3- الاستقامة على منهج الله، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود: 11/ 112].

4- تقوى الله، قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: 64/ 16].

5- الإنابة إلى الله، قال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الروم: 30/ 31].

6- التوبة، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [النور: 24/ 31].

7- الاستغفار، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ [فصلت: 41/ 6].

ما هي العبادة؟ العبادة أنواع:

1- العبادة القلبية: ومنها الحب والكره، والخوف والرجاء والتوسل والاستعاذة واللجوء إلى الله تعالى.

قال ﷺ: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان» عن أبي أمامة عند أبي داود، وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أوثق عرى الإيمان، الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله عز وجل» الطبراني.

2- العبادة الجسدية: كالصلاة والصيام والجهاد في سبيل الله تعالى.

3- العبادة المالية: كالزكاة والتصدق، وإطعام الطعام.

4- العبادة الفكرية: كالتفكر في آلاء الله تعالى، والتفكر في نعم الله تعالى.

5- العبادة اللسانية: ذكر الله تعالى، وكف اللسان عن الغيبة والنميمة وأذى الناس.

6- عبادة النظر: أن تكف نظرك عن الحرام.

7- عبادة السمع: أن تكف سمعك عن الحرام.

8- وقالوا: إن هناك عبادة في كل حركات الإنسان، عبادة النوم، وعبادة اليقظة، وعبادة الأكل والشرب.

نخرج من كل هذا: ما هي العبادة؟

قال ابن تيمية رحمه الله: العبادة اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال والنيات بشرط أن يندرج تحت أصل من أصول الشريعة.

والعبادة أنواع:

1- العبادة الفرضية: كالصلاة والصيام والزكاة والحج.

2- العبادة النفلية: وهي صلوات النوافل وصيام النوافل والصدقات.

قال الله تعالى في الحديث القدسي: «مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا، فَقَدِ اسْتَحَلَّ مُحَارَبَتِي، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ فَرَائِضِي، وَإِنَّ عَبْدِي لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ عَيْنَهُ الَّتِي يُبْصِرُ بِهَا، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَفُؤَادَهُ

الَّذِي يَعْقِلُ بِهِ، وَلِسَانَهُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ، إِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ مَوْتِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» حم.

3- فروض الكفايات: وهي أعمال وعبادات إذا قام بها البعض سقطت عن بقية الجماعة، وإذا لم يقم بها أحد أثمت الجماعة أو الأمة كلها، كعبادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبادة الجهاد، وعبادة تغسيل الأموات ودفنهم وما إلى ذلك.

فالعبادة هي علاقة العبد مع ربه، علاقة لحظية، دائمة مستمرة، فهي في الفكر والقلب والعقل واللسان والشعور وفي كل شيء.

هي علاقة جميلة تبعث على الاطمئنان والسكينة، وهي علاقة سهلة ليست صعبة.

1- والعبادة ليست عبئًا على الإنسان، قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 22/ 78]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 2/ 185].

2- نهى الله تعالى ورسوله ﷺ عن الغلو في الدين، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 5/ 77].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من قبلكم بالغلو في الدين» حم - ن - هـ - ك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» البخاري والنسائي.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ما بال أقوام قالوا: كذا وكذا؟ ولكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» متفق عليه.

3- الله لطيف بعباده، رحيم بخلقه، ما كلفنا ما لا نطيق، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 2/ 286].

يرضى منا بالقليل، فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس عليكم من الأعمال بما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملّوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دُوِّمَ عليه» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اكفلوا من العمل ما تطيقون، فإن خير العمل أدومه وإن قل» ابن ماجه.

وقال ﷺ: «إن الله ليرضى من العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها» عن أنس بن مالك في رواية مسلم (2735) - حم - ت.

4- يجب علينا أن نحدث الناس بما يعرفون ونأمرهم بما يطيقون ونحبب إليهم هذا الدين.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّبَ الله ورسوله» البخاري.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «لئن شئتم لأقسمن لكم، إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحبون الله ويحببون الله إلى خلقه، ولئن شئتم لأقسمن لكم إن أحب عباد الله إلى الله رعاة الشمس والقمر يمشون فصحاء» موقوف ضعيف. (رعاة الشمس والقمر): المؤذنون.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس في المسجد، دخل رجل على جمل، فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال: أيكم محمد؟ -ﷺ-، ورسول الله ﷺ متكئ بين ظهرانيهم، قال: فقالوا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: يا بن عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «قد أجبتك» ، فقال الرجل: يا محمد إني أسألك ومشدد عليك في المسألة فلا تجدن عليّ في نفسك، فقال ﷺ: «سل ما بدا لك» ، قال

الرجل: أنشدتك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «قال: اللهم نعم» قال: فأنشدك الله، آلله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال ﷺ: «اللهم نعم» ، قال: فأنشدك بالله، آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال ﷺ: «اللهم نعم» ، قال: فأنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «اللهم نعم» ، فقال الرجل: «آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر» سنن ابن ماجه.

5- ديننا دين سعادة وسرور وتمتع بما آتانا الله، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 7/ 32].

الدين علاقة مع الله تعالى، ونحن هنا في امتحان حتى نبرهن أننا نستحق الجنة بعقيدتنا، ومعاملاتنا، وحسن خلقنا، وصبرنا، وعبادتنا، وفرحنا، وسرورنا، وأحزاننا، الهدف لنا هو الجنة، والسبيل إليها عقيدة صحيحة، وعمل صالح على منهاج النبوة والصحابة الكرام والسلف الصالح.

وأرجع إلى السؤال الذي طرحته، لماذا الدين أصلاً؟ ولماذا العبودية لله؟ لماذا يجب أن أكون عبداً لله؟ قال الله تعالى الذي خلق الإنسان وصوره، ولا أعتقد أن هناك من يناقش بأن الله خلق الإنسان، فالكفرة الأقدمون قالوا وقد سجل الله شهادتهم بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: 29/ 61].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: 29/ 63].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: 43/ 87].

إذن ربنا الذي خلق الإنسان اسمع ما قال الله تعالى عنه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾ [الأحزاب: 33/ 72].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ [إبراهيم: 14/ 34].

الإنسان بتقرير الله الذي خلقه وصوره وكوَّنه وأخرجه يقول عنه أنه ظلوم جهول كفّار.

(الظلم): أن تضع الشيء في غير موضعه، (جهول): قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: 16/ 78]، (كفّار): جاحد، يجحد الحقيقة ويجحد النعمة.

إذا كان الإنسان بهذه الصفات فكيف الخروج منها؟

الظلوم والجهول والكفّار من يُسيِّرهُ؟ وكيف يعيش؟ وماذا يختار؟ الجواب هو أن الذي يُسيِّره: غرائزه وشهواته أي هواه، يعيش على هواه، ويختار ما يرضي غرائزه وشهواته. قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الروم: 30/ 29].

انظر إلى الصفتين في الآية: (ظلموا – بغير علم) ألا ترى التطابق مع (ظلوماً جهولاً)؟

إذن هناك طريقتين: 1 – الهوى، أو 2 – الوحي.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: 28/ 50]، الهوى أو الهدى، والهدى هو الوحي القرآني والوحي النبوي.

فحتى يخرج الإنسان من ظلمه وجهله وجحوده يجب عليه أن يتبع الوحي القرآني والوحي النبوي، ولذا تكفّل الله سبحانه بحفظ الوحيين حتى لا يكون لأي إنسان

حجة، ولأن هذين الوحيين هما تشريع الله الدائم والمهيمن والناسخ لما قبله، والنبي ﷺ هو آخر الأنبياء ولا نبي بعده.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 15/ 9].

فهل عرفنا لماذا الدين؟ لأنه بدون دين يبقى الإنسان ظلوماً جهولاً كفّاراً، بدون دين، نكون كالبهائم والحيوانات؛ لأن الغريزة والشهوة والهوى هو قائدنا ومحركنا وقد أشار الله تعالى إلى هذا فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 7/ 179].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: 47/ 12].

بدون دين تكون النار والعياذ بالله كما قال تعالى: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.

- هناك لفتة جميلة وهي أن صحيح البخاري مؤلف من (97) كتاباً، بدأها رحمه الله في الكتاب الأول وعنوانه بدء الوحي: وأنهى صحيحه بكتاب التوحيد رقم (97) وكتاب (96) هو الاعتصام بالكتاب والسنة، قال العلماء رضي الله عنهم جميعاً: إن البخاري رحمه الله أراد أن يقول: بأنه من أراد أن يختم له بالتوحيد فيجب أن تكون حياته كلها معتمدة على الوحي، والتوحيد منجاة من الخلود في النار.

الوحي أولاً، فلا تفعل شيئاً إلا وترى فيه أَمْراً وكيفية من الوحي، فإذا أردت أن يختم لك بخير، إذا أردت أن تكون ممن قال فيهم رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة» حم - د - ك.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة» البزار عن أبي سعيد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ﷺ من أسعد الناس

بشفاعتك؟ قال ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً مخلصاً من قلبه» البخاري.

حتى يختم لك بالتوحيد وبكلمة التوحيد عليك بالوحي في كل حركاتك وسكناتك، وفي كل أيام حياتك حتى تحقق قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 3/ 102].

والآن أعود فأقول: هل تعلم ما معنى: أني عبد الله؟ لأنه في عبوديتي نجاتي، ولأني عبد شئت أم أبيت، جِبِلَّتي عبد، تكويني عبد ... أعيش، وأموت، وأمرض، وأتألم، وأحتاج، بدون اختياري لأني عبد، أنا عبد إما بالاختيار أو القهر والاضطرار.

قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: 19/ 93 - 95].

ورسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وهو سيد الأنبياء والمرسلين، منَّ الله عليه بأن رفع منزلته فسماه عبداً، قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: 17/ 1].

وقال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: 18/ 1].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 25/ 1].

وقال تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ [النجم: 53/ 10].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد: 57/ 9].

نحن عبيد لله، بين أيدينا الكتاب الوحيد الذي تصح نسبته إلى الله تعالى، كتابنا هو

المهيمن على جميع الكتب، كتابنا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كتابنا محفوظ بحفظ الله له وليس بحفظ البشر، تشريعنا محفوظ بحفظ الله له، ونبينا هو رسول الله وخاتم النبيين وسيد البشر أجمعين، نحن عبيد الله، وهؤلاء المعتوهون، الفاجرون، الظالمون، الذين علموا أولادنا الخطأ وفتنوهم بما يسمى بالحرية فأصبحت تسمع فلاناً وفلانة يقولون: إنهم أحرار، وكلمة: أنا حر، كلمة باطلة خاطئة، كيف تكون حراً وعيشك ومماتك وصحتك وسقمك وآلامك وبردك وحرّك ورزقك ليس بيدك؟ كل شيء مقدر من الله، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 7/ 54].

والعبودية لها ركنان أساسيان: 1 - كمال الحب، 2 - كمال الذل.

- كمال الحب: تحبه سبحانه، وتحب شرعه، وتحب كتابه، وتحب رُسُلَهُ، وتحب عبيده المؤمنين، وتطيع رسوله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 3/ 31].

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» متفق عليه.

- كمال الحب: أن تسمع وتطيع وأنت سعيد وأنت راضٍ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 33/ 36].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 4/ 65].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء: 4/ 59].

ومن كمال الحب أن يتحمل الإنسان المشاق والمتاعب في سبيل محبوبه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن ضمرة بن جندب رضي الله عنه كان في مكة بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وكان مُسِنًا وكان مصابًا في بصره وهو أحد المستضعفين فهو معذور في عدم الخروج من مكة، ولكن حبه لله ولرسوله وللمؤمنين وحبه للصلاة خلف رسول الله ﷺ دفعاه للتحايل وبذل المال حتى خرج من مكة، ولما صار إلى التنعيم تعب تعبًا شديداً وعرف أنه سيموت فأخذ كفًا بكف وقال: اللهم هذه بيعتي لك، وأخذ كفًا بكف وقال: اللهم هذه بيعتي لنبيك، ومات رحمة الله عليه، فنزل جبريل بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 4/ 100].

وقيل: إن اسمه: ضمرة بن أبي العيص، وقيل: جندع بن ضمرة والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: 4/ 66].

لقد خرج الصحابة الكرام من ديارهم، وتركوا كل شيء خلفهم لحاقًا برسول الله وحبًا لرسول الله ﷺ، ومنهم من مات في الطريق ومنهم من تشرد، وهذه أم سلمة لما أراد زوجها أبو سلمة واسمه: (عبد الله بن عبد الأسد) أن يهاجر بها وبولدها سلمة، جاء أهلها بني مخزوم فأخذوا أم سلمة وحبسوها، وجاء أهله (بنو عبد الأسد) فأخذوا الولد، وهاجر أبو سلمة إلى المدينة، فتشردت العائلة بكاملها قرابة السنة، حتى مر رجل من بني المغيرة، فلما رأى بكاءها رق لها، وقال لبني مخزوم: ألا تَحَرَّجون من هذه المسكينة -أي تخرجونها من الإثم والضيق-؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها!، فقالوا: اِلحقي بزوجك، ورد بنو عبد الأسد إليها ابنها، فلما صارت إلى التنعيم لقيت

عثمان بن طلحة، فما تركها وحدها إنما ساقها إلى المدينة، فما صحبت رجلاً من العرب قط ترى أنه أكرم منه. وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على مكانة الصحابة رضوان الله عليهم وشرف صحبتهم. وقيل: إن الخروج من الدار يعادل القتل في سبيل الله، وفعل الصحابة كل شيء في سبيل الله وفي سبيل رسوله ﷺ ودينه، فهذا هو كمال الحب، بذل كل شيء في سبيل الله، وفي سبيل رسوله وفي سبيل دينه.

– كمال الذل: كلما ذلَّ الإنسان نفسه لله رفعه الله، أشرف ما في المرء جبينه وأنفه، والأنف مأخوذ من الأنفة (الكبرياء والعز)، هذا أشرف ما في الوجه، وإذا أرادت العرب أن تهين شخصاً قطعت أنفه، تقول: جدعت أنفه فلا يبقى له أنفة ولا عز ولا كبرياء. أنت تسجد لله، تضع جبهتك وأنفك على الأرض التي وطأتها الأقدام تذللاً لله تعالى، خضوعاً لله تعالى، تقرباً إلى الله تعالى.

عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد» البزار، وعن ثوبان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه بها درجة وحط عنه بها خطيئة» حم – ت – ن – حب.

وربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه لما سأل رسول الله ﷺ مرافقته في الجنة، قال له عليه الصلاة والسلام: «فأعني على نفسك بكثرة السجود» م – حم – د – ت.

قال ﷺ: «ما أصاب مسلماً قط هم، أو حزن ، فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علمت أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همّي، إلا أذهب الله تعالى همّه وأبدل مكان حزنه فرحاً، قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلم هذه الكلمات، قال: بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن» حم – ش – طب – ك عن ابن مسعود.

قال ﷺ: «إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلانـًا فأحبه! فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانـًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغضه! فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء: إن الله تعالى يبغض فلانـًا فأبغضوه! فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض» حم عن أبي هريرة.

نحن عبيد لله، نحن حملة مشاعل الهدى، نحن أتباع سيد البشر، نحن أصحاب الكتاب الحق، تعالوا نرجع إلى ربنا، نرجع إلى ديننا، نرجع إلى رسولنا، نرجع إلى أرحم الراحمين، نرجع عبيداً فيجعلنا سادة العالم، قال ﷺ: «ما السموات السبع والأراضين السبع إلا كحلقة في فلاة بالنسبة للعرش» هذا العرش العظيم ثبت في الحديث أن عرش الرحمن اهتز لموت سعد بن معاذ - سيد الأوس، اهتز عرش الرحمن لموته، لماذا؟ هل كان يصلي ألف ركعة؟ هل كان يقرأ القرآن كل ليلة؟ هل كان هل كان؟!

لا تقول كتب السير شيء إلا أنه نصر الله ورسوله، أسلم وتخلى عن أهله وعشيرته إن لم يسلموا، ما كان يحول بينه وبين رسول الله ﷺ شيء، حقق تمام الحب مع تمام الذل، حقق العبودية الحقة لله، فاستقبله الله ورفعه الله وأعزه الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم